# مكانة العقل فى القرآن الكريم والسنة

## دور العقل فى العلم والإبداع تكليف إلهى

أ.د/ محمد السيد الجليند
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مصر

من أفضل ما أنعم الله به على الإنسان أن كرمه على سائر خلقه بملكة العقل وجعله مــؤهلاً للأخذ عنه والتلقى من خزائن علمه وجود عطائه بخاصية العقل والفهم عن الله على قدر استطاعته؛ لذلك كان منهم الرسول والنبى والولى وأولو العلم والراسخون فيه، وكان تكريم الإنســان قاعــدة مقررة فى القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء : ٧٠) .

ومن أهم مظاهر هذا التكريم الإلهى للإنسان أن وهبه خاصية العقل وسواه على نحو جعلــه مؤهلاً لتلقى الخطاب الإلهى بعقل فاهم وإدراك واع لفحوى الخطاب، وكان العقــل هــو القاســم المشترك بين جميع المخاطبين باعتباره نورًا من نور الله فى الإنسان، يميز به بين الحق والباطل فى الأفعال والمعتقدات، والخطأ والصواب فى الأقوال، وكانت ملكة العقل هى الركيزة الأساســية التى جعلت الإنسان مؤهلاً لأداء الوظائف الوجودية التى كلفه بها الشارع كخليفة عن الله فى هــذا الكون مؤتمنا عليه لإعماره وحسن تسخيره لتحقيق مصالح الإنسان ودفع الضرر عنه، كمــا كــان ركيزة أساسية للتكليف الشرعى للإنسان بأداء ما أمر الله به ونهاه عنه فهو حجة الله على العبد يوم القيامة. ومن هنا يأتى اهتمام القرآن الكريم بالعقل ووظيفة التعقل، ومسئولية الإنسان العاقــل عــن الكون وما فيه ومسئولية الإنسان العاقل عن المجتمع وصلاحه وإصلاحه ودفــع ظــواهر الفســاد ومحاربة الإفساد عنه؛ ليكون المجتمع المسلم عنوانًا للمنهج القرآنى وتطبيقًا عمليا له.

وفى حديث القرآن الكريم عن خاصية العقل نجد ربطًا محكمًا بينــه وبــين أدوات الإدراك ووسائل المعرفة الظاهر منها والباطن بحيث لا ينفك أحدهما عن الأخر بل يتلازمان فــى حــديث

القرآن تلازمًا عضويًا ولا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ (النحل: ٧٨) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء:٣٦). ونجد فى حديث القرآن عن أدوات المعرفة أنه يربط كل معرفه بأداة تحصيلها، فربط السمع بحاسة الأذن وربط البصر بحاسة العين قال تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (الأعراف: ١٩٥) وقد تكرر ذلك فى القرآن كثيرًا.

إما ملكة العقل وخاصية التعقل فلم يرد ذكرها فى القرآن الكريم مرتبطة بحاسة معينة ولا مقرونة بآلة محددة كما كان ذلك الشأن فى الحديث عن حاستى السمع والبصر، وإنما جاء الحديث عن (العقل) فى القرآن الكريم باعتباره وظيفة إدراكية وليس باعتباره آلة ولا مقرونًا بآلة محددة؛ ولذلك لم ترد كلمة (العقل) فى القرآن بهذه الصيغة المصدرية، وإنما وردت المادة اللغوية كوظيفة فى صيغة الفعل المضارع (**يعقلون / تعقلون**).

وكان تعريف العقل عند المهتمين بنظرية المعرفة من علماء الأمة خاصة المهتمين بعلوم القرآن على أن العقل: وظيفة أو غريزة فى الإنسان كما صرح بذلك الإمام أحمد بن حنبل، وهذا بخلاف تعريف الفلاسفة للعقل بأنه: جوهر قائم بنفسه، متأثرين فى ذلك بتعريف فلاسفة اليونان للعقل. وقد أخذ بتعريف ابن حنبل كل من ابن القيم وشيخه ابن تيمية

ونحن من جانبنا نفضل تعريف العقل : بأنه وظيفة إدراكية يتعاون فى أدائها كل ملكات الإنسان المعرفية الظاهر منها والباطن على سواء، وهذا التعريف يتفق مع حديث القرآن عن العقل باعتباره وظيفة تتم بأدوات المعرفة كلها الظاهرة والباطنة معًا وليس بأحدهما دون الأخرى وهذا الارتباط العضوى بين أدوات الإدراك يفسر لنا هذا الاقتران بينهما فى حديث القرآن عنها فلم يرد ذكر الحواس الظاهرة منفردًا عن ذكر الحواس الباطنة أبدًا، بل جاء الاقتران بينهما فى كل موارد القرآن لها. وهذا يبين لنا أن مفهوم العقل فى القرآن يختلف عن مفهوم العقل فى المدارس الفلسفية المختلفة، فهو وظيفة وليس آلة، وهو يتعلق بكينونة الإنسان وبنيته وليس بحاسة واحده فى هذه البنية .. وهو ملكة ووظيفة يرتبط وجودها بوجود أدواتها فى الإنسان، وعلى قدر حسن توظيف الإنسان لهذه الأدوات يكون حسن تعقله للأمور ويكون نضجه فى إدراك المشاكل الذهنية أتم

وأكمل.

ولقد اهتم القرآن بعملية العقل والتعقل باعتبارها وظيفة يقوم بها الإنسان من جانب، وباعتبارها أسمى ملكة فى الإنسان كرمه الله بها عن سائر خلقة من جانب آخر، ومن هنا فإن القرآن قد أحاط ملكة العقل بمجموعة من التكاليف والأوامر التى تحفظه من عوامل الفساد والإفساد فشرع تحريم تناول كل ما يضر العقل ويفسد وظيفته من المسكرات والمفترات، وجعل الاقتراب من ذلك معصية لله تحرم صاحبها من رحمة الله ورضوانه إن لم يتدارك ذلك بالإقلاع والتوبة.

ولقد أخذ الحديث عن خاصية العقل وأهميتها قدرا كبيرًا من آيات القرآن الكريم تمثل ذلك فى أمرين مهمين جدًا: الأمر الأول تكرار ألوان اللوم والعقاب والوعيد بالعذاب لكل إنسان لم يحسن توظيف العقل وأعماله فى آيات الله؛ ليصل من هذا النظر العقلى السديد إلى الإيمان بالله ربا خالقًا وإلهًا معبودًا.

**الأمر الثاني:** توظيف القرآن للعقل بالنظر وتحصيل العلم فى عالم الشهادة لاكتشاف قوانينه والوقوف على سنن الله فيه؛ ليحسن عملية التسخير والتعمير التى كلفه الله بها فى هذا الكون وفى هذا المستوى الوجودى لعلاقة الإنسان بالكون نظرًا وتأملاً واكتشافًا للقوانين والسنن الكونية ويتجلى حديث القرآن عن العقل ومكانته فى المنظور القرآنى للإنسان والكون، حيث نجد العقل مسلطًا على هذا الكون بتكليف إلهى وبأوامر صريحة فى القرآن الكريم فكلف بالبحث فى هذا الكون من سماته إلى أرضه، كلف بإدراك العلاقات السببية بين ظواهره واكتشاف العلوم التى يتم بها تسخير هذا الكون لتحقيق مصالح الإنسان ، وتلك مهمة العقل المسلم التى يملك بها مفاتيح النهضة وسر التقدم ومناط التحضر، ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم يجعل هذه المهمة العقلية عبادة وتقربًا إلى الله فيساوى فيها مداد العلماء بدم الشهداء أمام الله يوم القيامة، ومن هنا كان حفظ العقل من كل ما يفسده مقصدًا من مقاصد الشريعة، وهو أحد الضروريات التى أوجب الشرع اعتبارها إحدى مقومات حياة الإنسان التى يجب حفظها وصونها.

ومعلوم أن عبادة العقل لله تكمن هنا فى النظر والتأمل والتفكير فى خلق الله وقراءة العقل لهذا الكون قد نزلت بها أول آية من القرآن الكريم ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ فإن القراءة هنا واقعة على (ٱلَّذِى خَلَقَ) على عالم الشهادة الذى هو آيات الله وموضوع نظر العقل.

ففى نظر العقل فى عالم الشهادة تتجلى كلمات الله الكونية (كن) فى شكل القوانين والحقائق العلمية، والمسلم مكلف شرعًا بالكشف عنها والإفادة منها.

وفى نظر العقل فى عالم الشهادة تتجلى سنن الله فى انتظام الممالك وانهيارها، والحاكم المسلم مكلف باكتشاف هذه السنن من وقائع التاريخ؛ ليعرف أسباب انتظام الممالك وأسباب انهيارها، وهى تدور بين تحقيق العدل وانتفاء المظالم وصون الحقوق وأدائها لأصحابها والحفاظ عليها.

وفى نظر العقل فى عالم الشهادة تتجلى للمفكرين والفلاسفة صفات الخالق وآثارها فى صنعته من الحكمة والإتقان والقدرة والعلم مما ينتفى معها القول بالصدفة أو العبثية.

وفى نظر العقل فى عالم الشهادة تتجلى مظاهر عناية الله بالإنسان ورحمته به، وقد أشار القرآن الكريم إلى كل ذلك، وكلف المسلم بمعرفته كمدخل واقعى للتعرف على الله.

ومن هنا كان اهتمام القرآن بعالم الشهادة يعتبر دعوة ربانية لكل ذى عقل أن يتأمل ويبحث ويكتشف ويسخر ويعمر ويحسن توظيف الكون أداء للتعمير ولأمانة الاستخلاف، ووظيفة **{واستعمركم فيها}**.... فهل أجاب المسلمون دعوة الله لهم للبحث العلمى فى عالم الشهادة؟

ألم يعلم المسلمون أن مفاتيح النهضة التى ينشدونها تكمن هنا، فى إجابة الدعوة القرآنية للعقل للانشغال بالعلوم الكونية..؟؟

ألم يعلم المسلمون أن قاطرة التقدم تكمن هنا فى دعوة القرآن للعقل للأخذ بمفاهيم العلم الكونى وإنتاج المعرفة..؟؟

ألم يعلم المسلمون أن قراءة الكتاب المنظور أمر إلهى نزل به كتاب الله المسطور..؟؟

والسؤال المحير لماذا تخلى المسلمون عن قراءة هذا الكتاب الكونى، وتركوه لغيرهم فقرؤوه واحتكروا قراءته وحرموا علينا الإفادة منه؟

## تحصيل العلوم الكونية تكليف قرآني

ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم وأوامره للمسلم أن ينظر فى عالم الشهادة، وأن يتأمل مفرداته وأنواعه، وأن يجول بفكره فى هذا العالم من سمائه إلى أرضه، وأن يعتبر هذا العالم معرضًا تعرض فيه الصنعة الإلهية بكل أنواعها ومفرداتها، ثم يتأملها العقل المسلم، وأن يقرأ كل عقل منها على قدر استطاعته من المواد للتأمل والتدبر ، وأن يقارن بين أوامر القرآن النظرية التى أمرتنا بتدبر هذا العالم باعتباره آيات الله الفعلية؛ ليجد أن هذا العالم أشبه بالمعمل العقلى الذى يتخذه العالم محرابًا لإجراءات تجاربه العملية؛ ليصل من هذه التجربة إلى اليقين الذى يريده. نعم ما أشبه هذا العالم بالمعمل الذى تمثل كل مفرداته تجربة حية يؤسس عليها يقين المسلم، وعلى القارئ لهذه الآية أو تلك إن يحسن القراءة، كما أن على العالم التجريبى فى معمله أن يحسن إجراء

التجربة مرات ومرات لكى يطمئن على صدق معطياتها ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (الملك : ٣، ٤) إذا أراد أن يصل إلى نتائج يقينية، إن مـا ذكـره كتـاب الله المسطور من صفات الخالق سبحانه وتعالى من العلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، والمشيئة العامة وغيرها من صفاته العليا قد فسرها كتاب الله المنظور، قد فسرها عالم الشـهادة تفسـيرًا عمليًـا، وجسدتها مفردات الكون كتطبيق عملى لما جاء ذكره فى القرآن نظريًا؛ ليكون كتاب الله المنظـور شاهدًا عمليًا بما جاء به كتاب الله المقروء، فهذا الكتاب آية كونية منظورة، وذاك الكتاب آية قرآنية مسطورة.

وكلا الكتابين يصدق بعضهما بعضًا، وكأن كتاب الله المنظور جاء تصديقًا عمليًا لكتـاب الله المسطور، وكانت العلاقة بينهما أشبه بعلاقة التجربة المعملية بالنظريـة العلميـة، فـإن التجربـة الصادقة هى التى ترفع مستوى النظرية العلمية من مجال الفرض العلمى الظنى إلى مقام الحقيقـة العلمية اليقينية – ولله المثل الأعلى فى ذلك – فإن كلام الله المقروء حق فى ذاته سـواء صـحت تجربة القارئ لعالم الشهادة أم لم تصح، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان : ١١) .

## ضرورة الجمع بين القراءتين:

إذا كان القرآن الكريم هو الذى أرشد العقل فى آياته الكريمة إلى ضرورة الاهتمام بقـراءة عالم الشهادة، فمما لا شك فيه أن إغفال المسلمين لهذه القراءة الكونية يعتبر إهمالاً لأوامر القـرآن وتغافلاً عنها. ولو لم تكن قراءة عالم الشهادة على هذه الدرجة من الأهمية لما لفت القرآن الكـريم نظر المسلمين إلى أهميتها وما أمرهم بها، ولا التأمل فى هذا العالم، ولا توعدهم بالعقاب إن هـم تغافلوا عنها. فإن كثرة الأوامر الإلهية بذلك فى القرآن الكريم تدل على أن قراءة عالم الشهادة أمر إلهى نتقرب به إلى الله كما نتقرب إليه سبحانه بالصلاة والصيام والزكاة، فهذا أمر إلهى وذاك أمر إلهي، ولا يكون أحدهما بديلاً عن الآخر فى تنفيذ المنهج الإلهى لعمارة الكون وتسـخيره لصـالح الإنسان، ولا يكون أحدهما كافيًا عن الآخر فى حسن التقرب والتعبد لله؛ لأن القرآن الكـريم هـو الذى أقسم فى آياته المقروءة بآيات الله المنظورة على أن القرآن حق وأنه وحى الله إلى نبيه ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (الحاقة: ٣٨-٤٠)، ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم:١-٤).

ومعلوم عند كل عاقل أن القرآن لا يقسم إلا بما عظم شأنه عند الله وعلا قدره عند الناس. ويقسم القرآن بالكون على ماذا؟؟ أنه يقسم بعظمة الكون على صدق القرآن فى نفسه، وأنها حق من عند الله وليس من عند محمد، وليس بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن.

وليس بعد هذا القسم دليل على اهتمام القرآن بتوظيف العقل فى عالم الشهادة ودليل على ضرورة الاهتمام به، وضرورة قراءته لتقف على مكنون أسرار الله فيه، إن هذين الكتابين (المسطور والمنظور) يمثلان لحياة المسلم جناحى الطائر، فإن الطائر لا تستقيم حركته فى الهواء إلا إذا استعمل جناحية معًا، يحلق بهما فى الفضاء؛ لكى يعبر بهما مفازات الصحراء وأعالى الجبال لكى يصل إلى تحقيق غايته ومقصوده كذلك حياة المجتمع الإسلامى لا تستقيم أبدًا إلا بحسن قراءة هذين الكتابين اللذين يصدق بعضهما بعضًا ويعضد أحدهما الآخر، ويأمر أحدهما بقراءة الآخر وبهما معًا تنهض الأمة علميًا وأخلاقيًا.

وكما جمع الخطاب الإلهى بينهما فى آيات الله القولية المقروءة يجب على المسلم أن يجمع بينهما فى حياته العملية، ويقرأ الكتابين قراءة توحيدية ينبغى من ورائها تحقيق الوظائف الكونية التى سبقت الإشارة إليها، وظيفة التسخير، ووظيفة التعمير، وما لم تكتمل هذه العناصر كلها فى قراءة المسلم لهذين الكتابين فإن قراءته تكون ناقصة، ويترتب بالضرورة على هذه القراءة الناقصة نقص آخر وقصور فى الواقع الذى يعيشه الإنسان فى حياته اليومية والاجتماعية، ونقص فى علاقته بالكون، وقد يترتب على هذا النقص فى القراءة نقص فى حاجة المسلم تضطره أن يمد يده للآخر من الذين أجادوا قراءة عالم الشهادة؛ ليطلب منهم ما عجز هو عن قراءته وتحقيقه، وما أسفرت عنه قراءته القاصرة من آثار وسلبيات تتمثل أحيانًا فى الحاجة إلى العلم الذى عجز عن الوصول إليه بسبب قصور قراءته، أو بسبب تقصيره فى قراءة آيات الله القولية، وأحيانا تترك هذه القراءة القاصرة آثارها السيئة فقرًا وجهلاً وتخلفًا عن ركب الحضارة الإنسانية، وهذا أمر واقع لا محالة لكل من قصر فى قراءة أحد هذين الكتابين، وهذا كله واقع فى حياة المسلم المعاصر.

إن أمتنا الإسلامية تعيش الآن بؤرة الصراع العالمى فكرًا وثقافة وحضارة، وما لم تتشبث الأمة بخصوصيتها الثقافية وتعبر عن ذلك فى حسن قراءتها لآيات الله القولية وآياته الكونية؛ فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها. فمن المعلوم أن هذه الأمة تحمل إلى العالم كله رسالة النور وطوق النجاة وتعيش مع الحضارات الأخرى سنة التدافع الوجودى فتأخذ وتعطى وتتأثر وتؤثر، وفى هذه الحوارات التدافعية يتنافس المتنافسون ويتمسك كل فريق

بخصوصيته ويعتز بهويته، وهذا أمر مشروع لكل صاحب فكرة ومذهب مادام يملك برهان الحق ودليل الصواب، ونحن أقدر الناس على ذلك؛ لأننا أصحاب كتاب ودعاة حق وأهل عقيدة سماوية لها منهجها فى تفسير الوجود والإنسان والمبدأ والمصير وعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع، وينبغى أن يتأسس على ذلك المنهج تحليلات المفكر المسلم للوجود بداية ونهاية ووظيفة، ويستمد منه نظره البرهانى فى تفسير العلاقات السببية المتبادلة بين ظواهر الكون وعلاقة الإنسان بذلك.

إن المنهج القرآنى فى تكليفه العقل بقراءة الكون يتميز عن المناهج الفلسفية الأخرى بأنه يحمل فى دلائله عوامل البرهنة اليقينية على صحة المسائل العقائدية التى يتناولها إقناعا للعقل واقتناعا بالقلب واطمئنانًا للنفس، بحيث تكتمل فى الإنسان قناعات كل إمكاناته المعرفية العقلية والوجدانية على سواء، كما يتميز هذا المنهج بنظرته التحليلية للوجود الإنسانى عن الفلسفات الأخرى التى تجعل من الوجود والإنسان كمًا مؤقتا وكيفًا عابثًا لا غاية له فى الوجود إلا لحظة يعيشها الإنسان يشبع فيها رغباته الحيوانية، ثم ينتهى الموقف كله بنهاية مأسوية عبثية هى الفناء المطلق.. أشبة بفصول الملهاة.

إن قراءتنا للكون خلال المنهج القرآنى تجعل للوجود معنى وللإنسان وظيفة، فالوجود لم يخلق عبثًا لا غاية له ولا هدف منه بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب، وعالم الشهادة فى القرآن الكريم لم ينفصل فى حكمته الوجودية عن عالم الغيب ، وليست المادة فى المنهج القرآنى مستقلة فى وجودها عن قانونها الغيبى الحاكم لها والمتحكم فيها كما هو الشأن فى المذاهب المادية قديمها وحديثها والعقل مكلف شرعًا بالكشف عن كل ذلك.

والوجود فى المنهج القرآنى ليس مبتوت الصلة بخالقه كما هو الشأن فى فلسفة أرسطو ورأيه فى المحرك الذى لا يتحرك، وإنما هو أية دالة على خالقه وتحمل مفرداته دلائل صفاته، وتجليات أسمائه الحسنى من العلم والحكمة والإرادة والقدرة .. إلخ.

والوجود فى المنهج القرآنى صفحة معروضة على العقل الإنسانى ليقرأها بتكليف إلهي: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١).

فالخلق كله من عالمه العلوى والسفلى صفحة معروضة على العقل أن يقرأها باسم (ربك) وليس باسم المادة ولا باسم الصدفة ولا باسم الطبيعة أو الدهر، يقرأ فيها ويقرأ منها على قدر استطاعته.

والوجود فى المنهج القرآنى يحمل فى قوانينه برهان العقل على فساد رأى القائلين بالصدفة أو المادة أو الدهر، فما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت وكل شيء عنده بمقدار، ومهمة الفيلسوف

أن يجلى هذه المعانى فى تحليلاته الفلسفية، ويعيد إليها اعتبارها المهدر فى تفسيراته العلمية، وتلك مهمة لا يفطن إليها إلا أولو الألباب، وأصحاب العزائم والنوايا الصادقة.

والقرآن الكريم هو الذى أمرنا أن نقرأ آيات الله الكونية، وأمرنا بحسن قراءتها والتأمل فيها باعتبارها آيات الله الفعلية، وباعتبارها التجربة العملية لتطبيق سنن الله فى كونه وباعتبارها مجرى قوانينه فى التعمير والتسخير، تعمير الأرض كما أمر بذلك القرآن الكريم ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ ( هود :٦١) وتسخير الكون لصالح الإنسان ﴿ **أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ (لقمان:٢١). وهاتان الوظيفتان (التعمير والتسخير) لا يمكن القيام بهما إلا إذا أحسن المسلم قراءة آيات الله الكونية، قراءة علمية كما أمرنا بذلك القرآن الكريم، وأن تكون قراءة عالم الشهادة المخلوق باسم ربك الخالق. وليس باسم المادة كما يقول الماديون ولا باسم الصدفة كما يقول العبثيون، ولا باسم الطبيعة كما يقول الطبائعيون، وكما أن قراءة الآيات القولية أمر إلهى نتقرب به إلى الله فإن قراءة آيات الله الكونية أمر إلهى، كذلك ينبغى ممارستها تقربًا إلى الله، ولا ينبغى أن يفهم أحد أن قراءة أحدهما تكون بديلاً عن الآخر لإقامة النهضة التى ننشدها لأمتنا؛ لأن آيات الله المقروءة التى نزل بها الوحى على قلب النبى ﷺ هى التى أمرت المسلم بقراءة آيات الله المنظورة فى هذا الكون كمفتاح للنهضة، ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم إلى عالم الشهادة ؛ ليكون موضوع تدبر وتذكير وتذكر وتفكير وتفكر، ليكون النظر العقلى فى هذا العالم المشهود بالحواس مدخلاً للتعرف على الخالق من خلال التعرف بأسلوب علمى ومنهج دقيق – على صنعته ومظاهر التدبير والتقدير، وظواهر ربط الأسباب بالمسببات، حيث يرون فى قانون السببية إشارة إلى حكمة الخالق فيما خلق، وحسن ربط الأسباب بالمسببات بمفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا هو، وبذلك يكون بين يدى المسلم كتابان للتعرف على الله، وعلى قوانينه، والتعرف على تجليات صفاته العليا وأسمائه الحسنى.

**الكتاب الأول:**

القرآن الكريم، هذا الكتاب المقروء، والذى يشير فى آياته الكريمة إلى المنهج الربانى الذى وضعه الخالق؛ لتستقيم به حياة المسلم على مستوى علاقته بنفسه، وعلى مستوى علاقته بالمجتمع، وعلى مستوى علاقته بالكون وما فيه، ثم على مستوى علاقته بالله ربًّا خالقًا وإلها معبودًا وذلك من خلال أوامر القرآن ونواهيه ووصاياه الأخلاقية، وخلال القصص الواردة فى القرآن؛ لتكون بمثابة الدرس العملي؛ لنستخلص منها العبرة التاريخية، التى نعيش بها حاضرنا ونستضيء بها لمستقبلنا.

**الكتاب الثانى:**

وهو كتاب الله المنظور، هو هذا العالم الكونى مجال النظر العقلى وميدانه، هو عالم الشهادة من سمائه إلى أرضه بما فيه من نجوم وشموس وأقمار وكواكب ومجرات، وبما فى الأرض وما عليها باطنًا وظاهرًا من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والحشرات، وما علمناه من هذا العالم مما هو خاضع لمداركنا الحسية والعقلية، وما غاب عنا ما لم ندركه من هذا العالم. كل ذلك آية وآيات محسوسة لنا ومنظورة لأعيننا، وكما أن كتاب الله المسطور والمقروء آية وآيات نعيشها إيمانًا بقلوبنا وعقولنا، فإن الكون هو كتاب الله المنظور بحواسنا الخاضع لسلطان عقولنا، وهذان الكتابان يرتبط أحدهما بالآخر برباط وثيق، أشار إليه القرآن الكريم فى العديد من آياته الكريمة، وكتاب الله المقروء القرآن الكريم هو الذى أمرنا بضرورة قراءة كتاب الله المنظور، وهو الذى سماه آية، وسمى ما فيه من مظاهر وظاهر آيات، وأمرنا بقراءة هذه الآيات بإعمال العقل فيها تدبرًا وتأملاً؛ لنحسن تسخيره وتعميره لصالح الإنسان .

**كتاب الله المنظور:**

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل منه فى مكة المكرمة، ومكث الرسول ﷺ بها ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى دين الله، ويبلغهم أصول العقيدة الإسلامية، التى تأسست أركانها وتم بناؤها فى مكة، وكان تأسيس العقيدة الصحيحة هى الهم الأكبر الذى شغل به الرسول ﷺ فى مكة؛ لأن بناء العقيدة الصحيحة فى قلب المؤمن هو أساس البناء السليم للفرد وللمجتمع معًا؛ لكى يصبح القلب متفتحًا لقبول أوامر الله ونواهيه من الصلاة والصيام والزكاة والحج والانتهاء عن كل ما نهى عنه، وما لم يصح أساس البناء فلن يصح بالتالى إقامة بناء عليه، وإنما يكون مآله الهدم؛ لأن ما لا أساس له فإن مصيره إلى الضياع، ولعل من هنا نستطيع أن نفهم السر فى أن القرآن المكى كان موجهًا فى الكثير من الآيات إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله ورسوله، عقيدة الإيمان بالبعث واليوم الآخر، عقيدة الإيمان بالنبوة والوحى، عقيدة الإيمان بما صح من كتب الله السابقة كالتوراة والإنجيل وألواح موسى وزبور داود، خاطب القرآن الكريم أهل مكة بأصول الاعتقاد باعتبارهم الجيل الأول الذى تلقى الخطاب عن الرسول ﷺ، وعاصر نزول الوحى وعايشه، ومن فضل الله ورحمته بهم أنه خاطبهم بآياته القولية النظرية التى نبهتهم وأرشدتهم إلى قراءة آيات الله فى أفعاله الكونية، تأمرهم بقراءة أفعاله فى كونه، وتدبر آياته المنظورة لهم والمشهودة بأعينهم فى هذا العالم ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ (الغاشية : ١٧-٢٠) هذه الآيات الكونية التى تشكل بمفرداتها البيئة المحيطة بهم

فى صحراء مكة من الأرض والجبال والنبات والحشرات والحيوان والأفلاك، كل هذه الآيات تجمع بين الشهود العقلى والشهود العينى تأسيسًا لليقين، فلم تسرح بهم الآيات فى تهويمات عقلية ولا خيالات فلسفية، وإنما نبهتهم إلى النظر فى البيئة التى يعيشونها؛ لأن القراءة الصحيحة لهذه الآيات الفعلية المحيطة بهم فى هذا الكون سوف تقودهم – إن صحت القراءة – إلى الإيمان بآيات الله القولية فى القرآن الكريم أن يؤمنوا بأن محمدًا نبى الله ورسوله، أن يؤمنوا بالبعث بعد الموت، والمطلوب من القارئ لآيات الله الكونية فى هذا العالم أن يخلص العقل من الشكوك والأوهام، لتكون القراءة صادقة وصحيحة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك:٣-٤) وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (سورة ق:٣٧). فالقراءة الصحيحة شرط للوصول إلى الفهم الصحيح والنتائج المطلوبة وهذا كان موضوع حرص شديد واهتمام كبير من الخطاب القرآنى للعقل المسلم.

إن هذه القراءة الكونية التى ينبهنا إليها القرآن الكريم تتميز بأنه يشترك فى قراءتها الحس والعقل والقلب، فالكون صفحة مقروءة أمام العقل والقلب معًا، فحين ينظر ويتفتح القلب الواعى تنفع الذكرى وتثمر فى القلب أثرًا إيمانيًا، يجعل للحياة معنى وللوجود قيمة؛ لأنها تصل قلب الإنسان العارف بالكون الذى هو موضوع المعرفة حيث تباشر الحواس معارفها الجزئية من رؤية السماء سقفًا مرفوعًا ومحفوظًا من الخلل، ويشهد السماء مزينة بالآيات التى تبعث فى النفس البهجة والسرور، فالقمر(نور) فى الليل ، والشمس (ضياء) فى النهار، والنجم علامات وهداية السراة ليلاً فى البر والبحر، هذه اللوحة الرائعة يقدمها القرآن الكريم خلال مشاهد حسية وعقلية وقلبية متعددة فى القرآن المكي، وفى تناسق عجيب؛ ليربط قلب المسلم بهذه المشاهدات فتنبعث فيه عوامل الإيمان واليقين، وتربط عقله بالنظر فى هذه الظواهر طلبًا لمزيد من التعرف عليها؛ لتصل بين الإنسان وهذه الظواهر فى وحدة معرفية يجمع فيها المسلم بين الذات العارفة – الإنسان – وموضوع المعرفة معًا، فالإنسان ليس غريبًا عن هذه الشواهد؛ لأنها مسخرة لأجله، وهو مطالب بالكشف عنها بعقله المؤمن وحسن الإفادة منها، ولا تستقيم حياته على الأرض إلا بذلك، ولابد له من وصل ما انقطع بينه وبينها فى الماضى حتى يواصل مسيرته، ويلحق بركب الحضارة الإنسانية، ولابد للمسلم من الصلة العلمية الوثيقة بها ، فكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك أو خاصية من خصائص الكون فيه يجب أن تتحول إلى موضوع للبحث العلمى يوثق صلة العقل المسلم بهذا

الكون بدلا من هذه الغربة والقطيعة العلمية بين المسلم وعالم الشهادة، والتى أصبحت ظاهرة لافتة للنظر فى واقع المسلمين.

إن هذا الكون كتاب مفتوح قابل لأن يقرأ بكل لغة، وفى ظل كل ثقافة وحضارة ، ولأهل كل دين والكون يكشف عن أسراره بكل وسيلة متاحة، ويستطيع أن يقرأه ساكن الكوخ وساكن القصور، وأن يطالع مفرداته كل عاقل، مسلمًا كان أو غير مسلم ؛ ليجنى الثمرة وينعم بخيراته، فيجد كل امرئ فيه زاده العلمى والإيمانى معًا، حين يطالعه بقلب مفتوح وعقل صحيح متطلع إلى الحق كل عقل يطالعه بقدر استعداده وعلى قدر استطاعته؛ ولذلك فإن الآية الواحدة تحمل معها البرهان العقلى لطالب العلم. واليقين الإيمانى لطالب الحق، والمنهج القرآنى يجمع بينهما فى سياق واحد، فلا ينقض البرهان العلمى اليقين الإيمانى بل يقويه ويرفده، ولا ينقض اليقين الإيمانى البرهان العلمى ولا يعارضه بل يدعمه ويؤيده، ويمده بنور البصيرة ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق : ٨) إن البصيرة المؤمنة هى التى تساعد العقل فى الربط بين الجزيئات المتناثرة والمفردات المتنوعة فيربط بعضها ببعض، ويضم شتاتها فى وحدة متناسقة تشير إلى وحدة المصدر ووحدة النظام الحاكم ووحدة الخالق كحقيقة كبرى، تسوق إليها هذه المقدمات الجزئية والمفردات المتنوعة على أنها الحقيقة الكبرى والمقصد والغاية أنها تصل القلب (المتبصر) بنواميس الكون ، فتذكره بالحكمة الكامنة والعناية الإلهية المبثوثة فى كل جزئياته، ما دق منها وما عظم فهى ليست معلومات جامدة يتلقاها العقل دون أن نسرى آثارها إلى القلب، فتثير فيه عوامل الإيمان ولذلك سماها القرآن آية وآيات. فهل من مدكر؟؟.

**أهم المراجع:**


١- الغيب والشهادة كما تحدث القرآن، أ.د/ محمد السيد الجليند دار قباء.

٢- المطالب العالية، فخر الدين الرازى.

٣- فى ظلال القرآن، سيد قطب.

٤- الإسلام بين الشرق والغرب، على عزت بيجوفيتش.

٥- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان.

٦- التفسير الكبير، فخر الدين الرازى.

٧- تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين، أ.د/ محمد السيد الجليند.